آداب العالم والمتعلم

لخادم العلم الشريف

أبي الفضل أحمد بن منصور قرطام كان

الله له ولوالديه ولمشايخه



الطبعة الخامسة

مزيدة ومنقحة

1437 هـ- 2016 م

ISBN: 978-9938-14-021-7

اَلْكَـاتِـبُ فِي سُطُـور

هو شيخنا الفقيه الأصولي المحدث الصوفي أبو الفضل أحمد بن منصور قرطام الحسيني المالكي التونسي الفلسطيني الأصل، ولد في لبنان عام 1381 هجري الموافق له 1960 رومي في مخيمات اللاجئين.

تلقى العلوم الأساسية والإعدادية والثانوية في مدارس اللاجئين في لبنان، والتحق في صفوف الثورة الفلسطينية وعمره عشر سنوات وكانت له مشاركات عديدة فيها.

استشهد والده رحمه الله في شهر شباط عام 1973 رومي.

ارتحل شيخنا لطلب العلوم الشرعية إلى بلدان شتى وأقطار عديدة.

تلقى شيخنا العلوم الشرعية عن ثلة من العلماء الأثبات نذكر منهم:

ـ الشيخ العلامة الأصولي المحدث سيدي محمد الشاذلي النيفر الحسيني المالكي التونسي عميد جامعة الزيتونة.

ـ الشيخ العلامة الأصولي الفقيه سيدي محمّد الأخوة المالكي الحنفي التونسي.

ـ الشيخ العلامة الأصولي الفقيه سيدي كمال الدين جعيِّط المالكي الحنفي مفتي الجمهورية التونسية.

ـ الشيخ العلامة الأصولي الفقيه سيدي محمد المازوني المالكي التونسي.

ـ الشيخ العالم الزاهد العابد حامل القراءات السبع المفسر اللغوي سيدي أحمد دريرة المالكي التونسي.

ـ الشيخ العلامة الأصولي الفقيه المفسر سيدي محمد المنصف جعيط المالكي التونسي.

ـ السيد العلامة بدر الدين الكتاني الحسني المالكي المغربي.

ـ الولي الصالح سيدي محمد تقي الدين الكتاني الحسني المالكي المغربي.

ـ السيد العلامة المحدث الأصولي المفسر محمد المنتصر الكتاني الحسني المالكي المغربي.

ـ السيد العلامة المحدث عبد الله التَّلِيدي الحسني المالكي المغربي.

ـ السيد العلامة الأصولي الفقيه محدّث المغرب الناقد الصوفي الكبير عبد العزيز بن الصديق الغماري الحسني المغربي.

ـ السيد الإمام الحافظ جامع شتات العلوم الولي الصالح المجاب الدعوة سيدي عبد الله بن الصديق الغماري الحسني المغربي.

ـ وتدبَّج مع إمام الحرمين سيدي محمّد علوي المالكي الحسني المكي.

تشرف شيخنا بالعديد من الإجازات الخاصة والعامة في مختلف الفنون والعلوم الشرعية.

يروي شيخنا بالسند المتصل الصحاح الخمسة وهي صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، ويروي موطأ الإمام مالك، وبقية السنن والمسانيد، وكتب المعاجم والأثبات كـ: سد الأرب، وفهرس الفهارس، والبحر العميق، وغنية المستفيد، والطالع السعيد، كما هو مجاز بالفتوى على المذاهب الأربعة.

مما قاله آباؤه رحمهم الله عنه:

قال الشيخ محمّد الشاذلي النيفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

"وكان محل الابن العالم البحاثة الأستاذ أحمد منصور قرطام الفلسطيني في طالعة الحاضرين مع اهتمام زائد في تسجيل الفوائد والبحث الصحيح، أمده الله بالإعانة، وزاده في زاده العلمي الكثير الوافر مما غَفَل الناس عنه، وحفظه ورعاه، كان الله له ولوالديه ولجميع المسلمين بمنه وكرمه".

وقال أيضاً في تقريظه على كتاب المفاخر العليَّة بحديث الرحمة المسلسل بالأوليَّة:

"وممن وفقهم الله إلى ذلك سعادة الأستاذ الشيخ أحمد بن منصور قرطام الفلسطيني التونسي البحاثة المطلع النفاعة الحريص على التلقي وعلى إبلاغ ما حصل عليه مِن زاد فائق، وتحصيل جادّ، بلَّغه الله المراد".

"كل ذلك جعله كفؤاً للتأليف والتدريس، **ثم قال**: وتوسع في معناه توسع خِرِّيت - الذي عرف خبايا الأمور-، فأشبع القول مما أفاد فيه وأجاد".

وقال فيه سيدي كمال الدين جعيِّط رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

"وإن مقام ابننا الشيخ أحمد لمن الصابرين المولعين بمعرفة أسرار الدين، المتلقِّين للمعرفة باليمين، وليت لنا قدراً من الفراغ أوسع في هذا الزمان الذي كثرت لنا فيه المشاغل والمسؤوليات، التي استغرقت كل الأوقات، ولم تترك لنا ساعة للتذاكر والمراجعة والبحث والمجادلة...".

وقال أيضاً في رسالة بعث بها إلى أهل فلسطين:

"وإن من بين من كَرَعَ من مناهل العرفان، وملأ وِطَابه من العلوم الشرعية، أكان في الأصول العقائدية على مذهب السادة الأشعرية، والتفقه في الأحكام العملية والفروع الفقهية على مذهب السادة المالكية، ابننا البار ولدنا الروحي الفاضل الزكي: أبو الفضل حسام الدين أحمد منصور قرطام الفلسطيني الأصل، التونسي المُقام، فقد لازمني وأخذ عني، وتخرج على أيدي علماء من أهل البلد الأجلاء، وإني المسمّى: كمال الدين بن محمد العزيز جعيِّط، طالب العلم الشريف، وأحد المتخرجين من جامع الزيتونة ومدرسيه، أجيز ابني أحمد المذكور لتدريس العلوم الشرعية، إذ هو أهل لذلك، فقد فاق

أقرانه ومن كان في سنه من أمثاله، فاقهم نبلاً وفضلاً، وفَهماً وعلماً، وهو من الذين لا يخشَون في الله لومة لائم، وقد اختبرته واختبرت تلاميذه ممن أخذوا عنه ونشر علمه بينهم فاستناروا به وانتفعوا به أيَّ انتفاع، وقد حَبَّرَ قلمه مسائل عقائدية وأخرى فقهية، وقد انتهزها مريدوه، وقد كنا مستأنسين به بيننا نتجاذب معه أطراف الحديث، ونتباحث في مسائل فقهية وأخرى أصولية، وقد شاء المولى أن ينتقل إلى البلاد الشرقية، وإني جازم بأنه سيؤهله مستواه المعرفي في العلوم الشرعية وتمكنه من أصول الدين وأصول الفقه ومعرفة القواعد من أن تتلقاه أهل البلد بالإجلال والإكبار، وتُرسّمه في سلك علمائها الكبار، وسيقوم إن شاء الله بتدريس العلوم الشرعية، وسينشئ الرسائل والتآليف الفاضحة لزيغ الزائغين، وسيقاوم اعوجاج المتنطعين وتحريف المضلين، وشهادتي فيه أنه: ملأ الوِطَاب بما حَسُن من العلوم الشرعية وطاب، وأنه تفقه في العلوم الشرعية ومقاصدها بحيث لا تتوارى عنه بحجاب، وهو مؤهل للفتيا بما يجلب له إن شاء الله الخير والثواب، وهو من المجتهدين الجاهدين في طلب العلم المتمسكين بسيرة وسنة سيد المرسلين،

الباذلين النفس والنفيس في إعلاء كلمة اللــه رب العالمين، واللّـهُ: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾"البقرة: ٢٦٩".

وقال فيه سيدي محمد المازوني التونسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

"فإن ابني الأستاذ أحمد منصور قرطام أَبَى إلا أن يبلغ درجةً قصوى من هضم علم الكلام، فبعد أن درس ذلك عليَّ سنة 89 بجامع الزيتونة، ونال مني إجازة في ذلك محررة بخط يدي، ها هو ذا يعيد الكرَّة من جديد، أعني بذلك أنه اتصل بي في داري برادس، وطلب مني أن يعيد الدراسة لمزيد التحقيق، ورغبة في التعمق، فلبيت بل رحبت بذلك، وتجددت الصلة بيني وبينه، وكانت الدراسة مني، وكان منه حسن القبول وكمال الاستعداد، وبذلك تجددت مني الإجازة بل الشهادة على حسن الإجادة، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وفَّقَه الله وأعانه، وهو بحقٍ جديرٌ بأن يدرس علم الكلام خاصة من كتاب طالع البشرى، والسلام".

وقال فيه سيدي عبد العزيز بن الصديق الغماري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

"أجزته بالطريقة الصديقية الشاذلية وأذنته بتلقينها للإخوان الصالحين، والحمد لله رب العالمين".

وقال أيضاً في إجازته على كتاب نبراس الأتقياء ودليل الأنقياء:

"فقد أجزت الأخ الفاضل الصالح البركة السيد أحمد بن منصور بجميع الأحزاب المذكورة في هذا المجموع".



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

أما بعد ،،،

فهذا شرح مختصر للجملة السابقة والتي تبدأ بكلمة بسم الله وتنتهي بكلمة أما بعد.

قال ابن جُزي رحمه الله في تفسيره التسهيل في علوم التنزيل: "كانت العرب تكتب بسمك اللَّهُمَّ حتى نزلت ﴿**بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا**﴾"هود: من الآية 41" فكتبوا بسم الله، حتى نزلت ﴿**قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ**﴾"الإسراء: من الآية 110" فكتبوا بسم الله الرحمن، حتى نزلت ﴿**إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾"النمل: الآية 30" فكتبوها ثم حذفت الألف للتخفيف وكثرة الاستعمال وتقدير الكلام ابتدئ "بسم الله" والباء للتبرك

أو المصاحبة، **والاسم**: مشتق من السمو أو السمة، والله: اسم علم يدل على الذات الواجبة الوجود وفُخِّمَ الاسم للتعظيم، وبناءً عليه فكل أمر يُطلبُ بدايته بالبسملة اقتداءً بالقرآن الكريم، ولِمَا جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع)"رواه الخطيب البغدادي في كتابه الجامع لآداب الراوي وأخلاق السامع"، وفي لفظ: (أبتر)، وفي لفظ: (أجذم) والحديث حسن.

ومعنى كلمة الرحمن: من تشمل رحمته المؤمنين والكافرين في الدنيا، **وأما كلمة الرحيم**: فهي تختص بالمؤمنين في الآخرة، وكلمة الرحمن أبلغ، والرحيم كثير الرحمة ومنها اشتُق اسم الرحم، وهي أسماء خاصة بالله ولا تطلق على غيره إلا بالإضافة: كعبد الله وعبد الرحيم وعبد الرحمن.

الحمد لله: **لغةً**: الوصف بالجميل على جهة التعظيم والتبجيل الاختياري لما أنعم الله علينا، **وأما الشكر**: فهو القول باللسان في مقابل إحسان، **وشرعاً**: إن الحمد ليس عبارةً عن قول القائل الحمد لله، بل هو فعل يُشعِرُ بتعظيم المُنعِم بسبب كونه مُنعِماً، وذلك إما أن يكون من فعل القلب وهو اتصافه بصفات الكمال والجلال، أو بفعل اللسان وهو ذكر ما يدل عليه، أو فعل الجوارح وهو الإتيان بأفعال دالة على ذلك، وكذلك **الشكر لله**: هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه من السمع والبصر وغيرها إلى ما خلق له وأعطاه لأجله.

قال الإمام الطبري في تفسير سورة الفاتحة: "الحمد لله: ثناء أثنى به الله على نفسه وفي ضمنه أَمَرَ عباده أن يثنوا به عليه، فكأنه قال قولوا الحمد لله رب العالمين أي إله العالمين ولا تطلق على غيره إلا بالإضافة كرَبِّ الدار، وهي مرادفة لكلمة إله".

العالمين: هو كل ما سوى الله، وقيل العقلاء الثلاثة: الملائكة والجن والإنس.

والابتداء بالبسملة عند العلماء جمعاً بين الحديثين واقتداءً بالكتاب العزيز والسنة المقررة وعملاً بمقتضى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (كُلُّ أمرٍ ذي بال لا يُبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع)"رواه النسائي وابن حبان عن أبي هريرة مرفوعاً"، وفي رواية عند عبد القادر الرهاوي: (كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله والصلاة علي فهو أقطع أبتر ممحوق من كل بركة)، وبهذه الرواية يشرح الحديث الأول.

الصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم: أي نسأل الله تعالى أن يرحم ويُؤَمِّن نبيه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (من صلى عليَّ واحدةً صلى الله عليه

بها عشراً)"رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وبمعناه عند البخاري".

وأما معنى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً**﴾"الأحزاب: الآية 56" فعلى ما قرره العلماء أنها من الله رحمة، ومن الملائكة استغفار، ومن الآدميين تضرع ودعاء وطلب، وفي هذا يقول علماء البلاغة إذا كان الخطاب من الأعلى إلى الأدنى فهو أمر، وإذا كان من المساوي فهو التماس، وإذا كان من الأدنى إلى الأعلى فهو رجاء وطلب، وأما ما يستعمل من لفظ السيد والمولى فقد قال الأُبي في شرحه على صحيح مسلم أن ذلك حسن لما في صحيح البخاري أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر)، ولما رواه الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (قوموا

إلى سيدكم)، وروى الحاكم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: (أنا سيد ولد آدم، وعليٌّ سيد العرب) وقال: صحيح ولم يُخرِّجاه، وعنده أيضاً عن السيدة عائشة رضي الله عنها وعن أبيها بلفظ (ادعوا لي سيد العرب)، قالت: فقلت: يا رسول الله ألست سيد العرب؟ قال: (أنا سيد ولد آدم وعليٌّ سيد العرب)، وأخرجه أيضاً عن جابر مرفوعاً بهذا اللفظ، وأبو نعيم في الحُلية عن الحسن بن علي عليهما السلام، وهذا من قبيل الاستدلال بما هو أدنى على ما هو أعلى، قال العجلوني في (كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس):

قِيامي على الأَقْدامِ حَقٌّ وسَعْيُها
لِلُقْياكَ يا فَرْدَ الزَمانِ أَكِيدُ
فَقَدْ أَمَرَ المُخْتارُ أَنْصارَهُ بِهِ
لِسَعْدٍ الذي قَدْ ماتَ وهو شَهيدُ

ومحمد منقول من اسم مفعول حمد المضعف وذلك لكثرة خصاله المحمودة وأنشد فيه عمه أبو طالب فقال:

وشُـــقَّ لَهُ مِـــنِ اسْـــمِهِ لِيُجِلَّـــهُ
فَـذُو العَـرْشِ مَحْمُـودٌ وهـذا مُحَمَّـدُ

ونقلها عنه حسان بن ثابت رضي الله عنه.

وقد اختلف العلماء في حكم الصلاة عليه على ثلاثة أقوال، والمشهور منها أنها فرضٌ في العمر مرة مع القدرة على النطق بها، وعملاً بقاعدة "لا تكليف إلا بفعل مقدور"؛ ولأن الأمر في الآية يفيد الوجوب ولا يفيد التكرار، وهناك من قال أنها واجبة وجوب السنن المؤكدة التي لا يسع تركها ولا يغفلها إلا من لا خير فيه، وقال آخرون: تجب كلما ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم واختاره الطحاوي من الحنفية، والحليمي من الشافعية، واللخمي من المالكية، وابن بطة من الحنابلة، وكذلك اختلف العلماء بالتسمية باسمه والتكني بكنيته عليه

الصلاة والسلام، وهذا موضوع طويل بين العلماء نختار ما هو مختصر ومعتبر، فأما في حياته صلى الله عليه وآله وسلم فلا، وأما بعد انتقاله للرفيق الأعلى فجائزٌ على القول الراجح، ولم يرضه سيدنا عمر لا في حياته ولا بعد وفاته لمقصد شرعي كبير حيث قال رضي الله عنه: "أيسب محمدٌ بين ظهرانينا"، وصح عن علي عليه السلام أنه قال: "يا رسول الله أرأيت إنْ وُلد لي وَلد من بعدك أسميه باسمك وأكنيه بكنيتك؟، قال صلى الله عليه وآله وسلم: **(نعم)**""رواه أحمد وأبو داود وغيرهما".

وفي هذا أنشد البُصيري رحمه الله:

فَـــــإِنَّ لي ذِمَّـــــةٌ بِتَسْـــــمِيَتي
مُحَمَّـــداً وُهـــوَ أَوْفَى الخَلْـــقِ بـــالذِمَمِ

وآله وصحبه الطيبين الطاهرين: هي معطوفات على محمد صلى الله عليه وآله وسلم، أي تبعٌ لها، وتجوز الصلاة على غير الأنبياء استقلالاً لقوله تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾**

"الأحزاب: من الآية 33"، وقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾"التوبة: من الآية 103"، وعن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ فُلاَنٍ) فأتاه أبي بصدقته فقال: (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى)"رواه البخاري ومسلم"، وإن كان المشهور غير ذلك إذ العبرة بما صح ثبوته كتاباً وسنةً وليس كثرة الأقوال والقائلين.

ويجوز أن يقال أبو بكر عليه السلام أو علي عليه السلام، فقد جرت عادة أئمة المسلمين من سلف الأمة وخلفها عند ذكر سيدنا علي أن يقولوا (عليه السلام)، وورد هذا كثيراً في كتب التفسير والصحاح والسنن والمسانيد، ونكتفي بما ورد في صحيح الإمام البخاري في كتاب التفسير عند تفسير سورة

الذاريات حيث قال: "قال علي عليه السلام: الذاريات هي الرياح"، ولم يقتصر أدب الإمام البخاري مع سيدنا علي بل تعدى إلى ذريته، فقد ذكر في باب مناقب الحسن والحسين عليهما السلام عن أنس بن مالك رضي الله عنه: "أُتِيَ عبيد الله بن زياد – لعنة الله عليه- برأس الحسين عليه السلام ..."، فهذا إمام المحدثين وصاحب أصح كتاب في السنن يسلك الأدب مع آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلو كان ممنوعاً أن نقول عليه السلام لما وسَّم به كتابه.

والآل هنا أقاربه المسلمون والمؤمنون من بني هاشم، وفيمن فوقهم إلى بني غالب قولان، وأما فوق غالب فليسوا بآل، وهو صلى الله عليه وآله وسلم سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب واسمه شيبة بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن

النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة واسمه عامر بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان كذا في الصحيح وهو متفق عليه، وما بعد عدنان إلى آدم فهو مختلفٌ فيه إلا أنه متفق على أن النسب يُرفع إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهم الصلوات والرحمة، وقد نظم الإمام محمد بن مرزوق التلمساني رحمه الله بيتين رمز فيهما بالحرف الأول من كل كلمة إلى واحد من الآباء الكرام على ترتيبهم فقال:

عَلِقْــتُ شَــفِيعًا هَــالَ عَقْــلِي قُرَانُــهُ
كِتَــابٌ مُبِــينٌ كَسْــبُ لُــبِّي غَرَائِبُــهْ
فِـدَا مَعْــشَرٍ نَفْــسِي كِـرَامُ خُلَاصَـةٍ
عَلَى الفِهِــمْ مُــذْ نِبــلَ مَجْــدٌ عَوَاقِبُــهْ

والمراد بالصحابي هو من اجتمع مؤمناً بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم سواءً رآه أم لا، كابن أم مكتوم وهذا سر التعبير بالاجتماع دون الرؤية ومات على ذلك الإيمان، وعطف

الصحب على الآل لتشمل الصلاة من اجتمعت له الصحبة والآلية كعليٍ عليه السلام، ومن انفرد بالصحبة وليس من الآل كأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، ومن انفرد بالآلية دون الصحبة كزين العابدين عليه السلام، وبين الصحبة والآل عموم وخصوص، فكل من كان من الآل جاز أن يكون من الصحابة، وليس كل من كان من الصحابة يلزم أن يكون من الآل، وتشمل الصلاة أيضاً المتبع للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وشريعته.

أما بعد: كلمة يؤتى بها للانتقال من معنى إلى آخر، وهي تفيد الإضافة بمعنى الذي، والله ورسوله أعلم.



فصل آداب المُعَلّم

ومما يجب أن يكون عليه المُعَلّم:

أولاً: إخلاص النية في تعليم العلم لله تعالى وذلك لقوله تعالى: **﴿وَمَآ أُمِرُواْ إِلا لِيَعبُدُوا اللهَ مُخلِصِينَ لَهُ الدِينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ الصَلاَةَ وَيُؤتُواْ الزَكَاةَ وذَلِكَ دِينُ القَيمَةِ﴾**"البينة: الآية 5"، ولحديث عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ)"متفق عليه".

ثانياً: أن يكون مستقيماً صدوقاً تقياً حَسن الخُلق وذلك لقوله تعالى: **﴿إِنَ الَذِينَ قَالُوا رَبُنَا اللهُ ثُمَ استَقَامُوا تَتَنَزَلُ عَلَيهِمُ المَلآئِكَةُ أَلاَ تَخَافُوا وَلاَ تَحزَنُواْ وَأَبشِرُواْ بِالجَنَةِ التِي كُنتُم تُوعَدُونَ﴾**"فصلت: الآية 30".

ثالثاً: أن يكون متواضعاً كثير الصمت قليل الكلام إلا فيما يعنيه لقوله تعالى: **﴿وَاخفِض جَنَاحَكَ لِمَنَ اتبَعَكَ مِنَ المُؤمِنِينَ﴾**"الشعراء: الآية 215"، ولحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (مَنْ تَوَاضَعَ لأَخِيهِ الْمُسْلِمِ رَفَعَهُ اللَّهُ، وَمَنِ ارْتَفَعَ عَلَيْهِ وَضَعَهُ اللَّهُ)"رواه الطبراني في المعجم الكبير"، وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ)"رواه الترمذي".

رابعاً: أن يكون زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة وَرِعاً غير متكبر، لحديث سهل بن سعد رضي الله عنه قال: أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا أَنَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللَّهُ وَأَحَبَّنِي النَّاسُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ: (ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ وَازْهَدْ فِيمَا فِي

أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّوكَ)"رواه ابن ماجه"، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ: (فَضْلُ الْعِلْمِ أَفْضَلُ مِنَ الْعِبَادَةِ، وَمِلاكُ الدِّينِ الْوَرَعُ)"رواه الطبراني في المعجم الكبير"، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (الْعِزُّ إِزَارُهُ وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ)"رواه مسلم".

خامساً: أن لا يكون بخيلاً ولا يسأل الناس أموالهم لحديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (لا تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ)"متفق عليه".

سادساً: أن لا يرتكب المحرمات لقوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَقرَبُوا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنهَا وَمَا بَطَنَ**﴾"الأنعام: الآية 151"، ولحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم

قال: (إِنَّ اللَّهَ يَغَارُ وَغَيْرَةُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ)"رواه البخاري ومسلم واللفظ له".

سابعاً: أن يكون عالماً بالكتاب والسنة عاملاً بهما لقوله تعالى: **﴿يَرفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُم وَالذِينَ أُوتُواْ العِلمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعمَلُونَ خَبِيرٌ﴾**"المجادلة: الآية 11"، ولحديث معاوية قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَالْفِقْهُ بِالتَّفَقُّهِ، وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)"رواه البخاري ومسلم والزيادة عند الطبراني"، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (فَقِيهٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ)"رواه الترمذي وابن ماجه"، وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (اغدُ عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً ولا تكن

الخامس فتهلك)"رواه الطبراني" - والخامسة أن تبغض العلم وأهله-.

ثامناً: أن لا يفعل خلاف ما يقول من الحق لقوله تعالى: **﴿يَا أَيُهَا الَذِينَ آمَنُوا لِم تَقُولُونَ مَا لاَ تَفعَلُونَ كَبُرَ مَقتاً عِندَ اللّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفعَلُونَ﴾**"الصف: الآية 3"، ولحديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ، قُلْتُ مَا هَؤُلاءِ؟ قَالَ هَؤُلاءِ خُطَبَاءُ أُمَّتِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا يَعْقِلُونَ)"رواه الطبراني في المعجم الأوسط".

تاسعاً: إذا سُئل وغابت عنه المسألة يقول: لا أدري، قال تعالى: **﴿وَلاَ تَقفُ مَا لَيسَ لَكَ بِهِ عِلم إِنَ السَمعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُ أُولئِكَ كَانَ عَنهُ مَسئُولاً﴾**"الإسراء: الآية 36"، وعن ابن عمر رضي

الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله أي البقاع خير؟، قال صلى الله عليه وآله وسلم: (لا أدري)، فقال أي البقاع شر؟، قال صلى الله عليه وآله وسلم: (لا أدري)، فقال: سل ربك، فلما جاء جبريل قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (إني سُئِلت أي البقاع خير، وأي البقاع شر؟ فقلت: لا أدري، فقال- أي جبريل-: وأنا لا أدري حتى أسأل ربي، قال صلى الله عليه وآله وسلم: فانتفض جبريل انتفاضة كاد أن يصعق منها محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فقال الله: يا جبريل يسألك محمد أي البقاع خير فقلت: لا أدري، فسألك أي البقاع شر فقلت: لا أدري، وإن خير البقاع المساجد، وشر البقاع الأسواق)"رواه الحاكم".

ولله در القائل:

أَلَـــيْسَ مِـــنَ البَلْـــوَى أَنَّـــكَ جاهِـــلٌ
وأَنَّـــكَ لا تَـــدْري بِأَنَّـــكَ لا تَـــدْري
إِذا كُنْـتَ لا تَـدْري ولَسْـتَ كَمَـنْ يَـدري
فَكَيْـــفَ إِذا تَـــدْري بِأَنَّـــكَ لا تَـــدْري

عاشراً: أن يُرَوّح القلوب ببعض الطُرَف على أن لا يكثر الضحك والمزاح وذلك لما رواه أنس رضي الله عنه أَنَّ رَجُلا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ احْمِلْنِي، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ: (إِنَّا حَامِلُوكَ عَلَى وَلَدِ نَاقَةٍ)، قَالَ: وَمَا أَصْنَعُ بِوَلَدِ النَّاقَةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ: (وَهَلْ تَلِدُ الْإِبِلَ إِلا النُّوقُ)"رواه أبو داود".



فصل آداب المتعلم

ومما يجب على طالب العلم مراعاته أثناء تحصيله للعلوم الشرعية ما يلي:

أولاً: أن يخلص النية في طلب العلم لله ولا يقصد به جاهاً ولا مالاً ولا مباهاةً ولا مراءً ولا جدالاً ولا رياءً، بل يقصد به وجه الله والدار الآخرة وإحياء الدين وبقاء الإسلام؛ لأن بقاءه بالعلم، وذلك لحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه السابق قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ)"متفق عليه".

ثانياً: أن يبدأ بعلم الدين الضروري قبل علم الدين الكفائي، ويرحل لطلبه إن لم يتيسر له في بلده وذلك

لقوله تعالى: ﴿فَلَولاَ نَفَرَ مِن كُلِ فِرقَةٍ مِنهُم طَآئِفَةٌ لِيَتَفَقَهُواْ فِي الدِينِ وَلِيُنذِرُواْ قَومَهُم إِذَا رَجَعُوا إِلَيهِم لَعَلهُم يَحْذَرُونَ﴾"التوبة: الآية 122"، ولما رواه عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامِ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ)"رواه البخاري ومسلم واللفظ له"، وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، وَوَاضِعُ الْعِلْمِ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ كَمُقَلِّدِ الْخَنَازِيرِ الْجَوْهَرَ وَاللُّؤْلُؤَ وَالذَّهَبَ)"رواه ابن ماجه".

ثالثاً: أن يصحب شيخاً عالماً عارفاً متمكناً وأخاً فاضلاً، فيطيل صحبته ويتواضع له ويُوَقِّرُه ويمتثل أمره، فالعلم لا يُنالُ إلا بتعظيم العلم وأهله، وذلك لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن

النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ)"رواه أحمد والبيهقي والقضاعي".

قلت:

عَنِ المَرْءِ لا تَسْأَلْ وسَلْ عَنْ قَرينِه
عادَةُ المَرْءِ على دينِ خَليلِه

ولِمَا رواه مسلم في مقدمة صحيحه والترمذي في آخر كتابه الشمائل عن ابن سيرين: "إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم"، وروى الديلمي في مسند الفردوس عن ابن عمر رضي الله عنهما: "العلم دين والصلاة دين، فانظروا عمن تأخذون هذا العلم، وكيف تصلون هذه الصلاة، فإنكم تسألون يوم القيامة".

رابعاً: أن يكون حريصاً مجتهداً تقياً متحرياً وأن يرحل في طلبه إلي الآفاق البعيدة، وذلك لحديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول:

(مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضاً لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ يَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانِ فِي الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلا دِرْهَماً، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ)"رواه ابن ماجه"، وقال الإمام مالك رضي الله عنه: "العلم نفور لا يأنس إلا في قلب تقي خاشع".

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

أَخي لَـــنْ تَنـــالَ العِلْــمَ إلاَّ بِسِـــتَّةٍ
سَـــأُنْبيكَ عَـــنْ تَفْصـــيلِها بِبَيـــانِ
ذَكاءٍ وحِـــرْصٍ واجْتِهـــادٍ وبُلْغَـــةٍ
وصُـــحْبَةِ أُسْـــتاذٍ وطُـــولِ زَمـــانِ

خامساً: أن يتحرى النقل فيما يرويه عن شيخه، وذلك لما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا وَحَفِظَهَا وَبَلَّغَهَا فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ)"رواه أصحاب السنن وغيرهم بطرق كثيرة وألفاظ مختلفة"، وقد أفرد له شيخ شيوخنا سيدي أحمد بن الصديق الغماري جزءاً سماه (المسك التبتي بتواتر حديث نَضَّرَ الله امرأً سمع مقالتي)، فأوصل عدد رواته إلى عشرين صحابياً.

وقال الأستاذ العلامة علي بن إبراهيم التجاني البجلي:

إِنَّ الذي يَـــــــرْوي ولكِنَّـــــــهُ
يَجْهَـــلُ مـــا يَـــرْوي ومـــا يَكْتُـــبُ
كَصَـــــخْرَةٍ تَنْبُــــعُ أَمْواهَهـــــا
تَسْـــــقي الأَراضي وهِيَ لا تَشْـــــرُبُ

سادساً: أن لا يكثر عنده الكلام، ولا يستبق الأسئلة في غير محلها، وذلك لحديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ)"رواه أحمد".

سابعاً: أن لا يمنعه الحياء والكِبْر أن يسأل عما لا يعلم، وذلك لحديث جابر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (لا ينبغي للعالم أن يسكت على علمه، ولا ينبغي للجاهل أن يسكت على جهله، قال الله جلَّ ذكره: ﴿**فَاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾"النحل: من الآية 43")"رواه الطبراني في المعجم الأوسط"، وأنشد الإمام الشافعي رضي الله عنه فقال:

مَـنْ لَـمْ يَـذُقْ ذُلَّ التَعَلُّـمِ سَـاعَةً
تَجَرَّعَ كَـأْسَ الجَهْـلِ طُـولَ حَياتِـهِ

وأن يعلم بأن العِلْمَ كله عظيم، فمن تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن تعلم الفقه عظم قدره، ومن تعلم الحديث قويت

شوكته، ومن تعلم العربية رق طبعه، فخُذ من كل علمٍ أحسنه، وذلك لحديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: (خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ بَعْضِ حُجَرِهِ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ فَإِذَا هُوَ بِحَلْقَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَدْعُونَ اللَّهَ وَالأُخْرَى يَتَعَلَّمُونَ وَيُعَلِّمُونَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ: كُلٌّ عَلَى خَيْرٍ هَؤُلاءِ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَدْعُونَ اللَّهَ فَإِنْ شَاءَ أَعْطَاهُمْ وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُمْ، وَهَؤُلاءِ يَتَعَلَّمُونَ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّماً فَجَلَسَ مَعَهُمْ)"رواه ابن ماجه"، وأنشد إمامنا الشافعي رضي الله عنه فقال:

لَـنْ يَبْلُـغَ العلـم أَحَـدٌ وإِنْ حـاوَلَهُ أَلْـفَ سَـنَةٍ

العِلْمُ عَميقٌ بَحْرُهُ فَخُذُوا مِـنْ كُلِّ عِلْـمٍ أَحْسَـنَه



فصل أول الواجبات على المكلف

اعلم أن أول واجب على المكلف البالغ العاقل الذي وصلته دعوة الإسلام في حال كونه متمكناً من النظر وخالياً من المانع هو معرفة الله تعالى ومعرفة رسله عليهم الصلاة والسلام، وذلك بالصفات التي نصب الله تعالى عليها الأدلة والبراهين، إذ الجهل بالصفة جهلٌ بالموصوف، وإن شرف العلم بالمعلوم مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي، إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾"طه: الآيات 14- 15"، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾"محمد: من الآية 19"، فهذه الآيات من القرآن فيها إشارة إلى علمين: علم التوحيد وعلم الفروع، وقد قدم الله تعالى ما فيه إشارة إلى علم التوحيد على ما فيه إشارة إلى علم الفروع، ففهم العلماء من

ذلك أن علم التوحيد أشرف العلوم وأفضلها على الإطلاق، وقد خصَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نفسه بالترقي في هذا العلم فقال صلى الله عليه وآله وسلم: (مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنْ الشَّيْءِ أَصْنَعُهُ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لأَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً)"رواه البخاري"، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سُئِل أي العمل أفضل فقال صلى الله عليه وآله وسلم: (إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)"رواه البخاري"؛ ولأن الأعمال الصالحة لا تقبل بدون الإيمان بالله ورسوله، وإن شرف العلم بالمعلوم، فهم العلماء رضي الله عنهم أن أشرف العلوم وأولاها على الإطلاق هو علم التوحيد.

وما أجمل قول الإمام أبو عبد اللَّه محمد بن مجاهِد:

أَيُّهــــا المُقْتَـــدي لِيَطْلُـــبَ عِلْمـــاً

كُلُّ عِلْــــمٍ عَبْـــدٌ لِعِلْـــمِ الـــكَلامِ

تَطْلُبَ الفِقْهَ كَيْ تُصَحِّحَ حُكْماً

ثُمَّ أَغْفَلْتَ مُنَزِّلَ الأَحْكَامِ

وقد قال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه في الفقه الأبسط: "اعلم أن الفقه في الدين أفضل من الفقه في الأحكام"، وقال أيضاً: "أصل التوحيد وما يصح الاعتقاد عليه وما يتعلق بالاعتقاديات هو الفقه الأكبر"، وقال إمامنا الشافعي رضي الله عنه: "أحكمنا ذلك قبل هذا"، معناه: أتقنا علم التوحيد قبل علم فروع الفقه، وقال إمام أهل السنة في هذا العلم - أي علم التوحيد- أبو الحسن الأشعري رحمه الله: "أول ما يجب على العبد العلم بالله ورسوله ودينه"، وقال الإمام الغزالي: "لا تصح العبادة إلا بعد معرفة المعبود" لئلا يُعْبَد الله على جهل، ولتميز صفات الخالق عن صفات المخلوق، كاعتقاد من يعتقد أنه جسمٌ أو جالسٌ أو في جهةٍ من الجهات، أو وَصْفِهِ بصفةٍ من صفات البشر - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً-، فهذا عبادته

تكون لشيءٍ توهمه في مخيلته فيكون مشركاً بالله، وعلى ذلك إجماع أهل السنة كما هو مقرر في بابه من كتب العقائد، وكما هو مبسوط في كتب الفقه من باب الردة أعاذنا الله وإياكم منها، وعلى هذا المعنى فلا تصح عبادته مهما أوتيَ من صيام وقيام وصدقات لأنه فاقد لأصل الإيمان وذلك لما رواه ابن ماجه عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: (كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ وَنَحْنُ فِتْيَانٌ حَزَاوِرَةٌ فَتَعَلَّمْنَا الإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَاناً)، وعن عتبان بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ)"رواه الشيخان"، ففهم العلماء من ذلك أن من أتقن علم التوحيد ومات على ذلك لا يخلد في نار جهنم على ما كان من العمل مصداقا لقوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾"النساء: من الآية 48".

والواجب الثاني على المكلف هو تحصيل الفروع الفقهية التي تندفع بها الوساوس الشيطانية، وتصح بها العبادات والمعاملات المرضية. قال تعالى: **﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾**"التوبة: من الآية 122"، فتبيِّن لنا الآية عِظَمَ مكانة الفقه وسمو منزلة الساعين لتحصيله، وقال تعالى: **﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾**"محمد: من الآية 19"، وقول الإمام الشافعي رضي الله عنه: "أحكمنا ذلك قبل هذا" فيه تصريح منه رضي الله عنه أنه بعد تحصيل الشهادتين لا بد من تحصيل حقهما وهو الصلاة والصوم والحج والزكاة، وهو المعبر عنه بضروريات الدين، وكذلك قوله سبحانه وتعالى: **﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ**

الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾"طـه: الآية 14"، في هذه الآية دلالة صريحة على وجوب تعلم الصلاة وما يتعلق بها من أحكام بعد إتقان التوحيد لأنها رأس الأعمال وعماد الدين، وقد عرَّفَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الإسلام في حديث جبريل فقال: (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ)"رواه مسلم"، وعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ: (بُنِيَ الْإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ)"رواه البخاري"، فلا غنى لكل مكلفٍ عن هذا العلم لمعرفة الحلال من الحرام، والخبيث من الطيب، وصحيح العبادات والمعاملات من فاسدها، فيعبد ربه على علمٍ وبصيرة، وقد نوه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على مكانة الفقه

وحامله لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (مَا عُبِدَ اللَّهُ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ فِقْهٍ فِي دِينٍ، وَلَفَقِيهٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ عِمَادٌ، وَعِمَادُ هَذَا الدِّينِ الْفِقْهُ)"رواه الطبراني في المعجم الكبير".

ولله در القائل:

إِذا اعْـــــتَزَّ ذُو عِلْـــــمٍ بِعِلْـــــمٍ
فَعِلْـــــمُ الفِقْـــــهِ أَشْرَفُ في اعْـــــتِزازِ
فكَـــمْ طِيـــبٍ يَفُـــوحُ ولا كَمِسْـــكٍ
وكَـــــمْ طَـــــيْرٍ يَطِـــــيرُ ولا كَبـــــازِ

فإذا كان الفقه بهذه المرتبة الشريفة والمزايا المنيفة لما اشتمل عليه من الأسرار الإلهية، كان الاهتمام به في الدرجة الأولى بعد التوحيد الذي يجب تحصيله قبل كل شيء، وصرف الأوقات النفيسة بل العمر فيه أولى؛ لأنه به تصح العبادة وتسلم من الفساد وتُحف بالرضوان والقبول من الله عزَّ وجل، فسبيله

سبيل الجنة وطريق المهتدين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، والعمل به حرزٌ من النار.

وأما الواجب الثالث الذي لابد من تحصيله فهو تهذيب النفس وإصلاحها وتطهيرها من كل ما يباعد عن الله، وتزيينها بكل ما يقرب إِليه، ويزلف لديه من الأحوال والأقوال والأعمال، وتخليصها من دنس الأخلاق الذميمة، وتصفية البواطن من الرذائل، وتحليتها بأنواع الفضائل، والرقي بالأرواح إلى مراتب الفلاح، وهو ما يعبر عنه بعلم الزهد أو السلوك أو الأخلاق أو الأدب فكلها مسميات لعلمٍ واحد وهو علم التصوف الذي مقامه في الحديث "الإحسان"، والذي هو أحد أركان الدين الثلاثة لما رواه مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ

سَوَادِ الشَّعَرِ، لا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنْ الإِسْلامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ: الإِسْلامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ الإِيمَانِ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ الإِحْسَانِ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعَةِ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ

مِنْ السَّائِلِ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ: أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ، فَلَبِثْتُ مَلِيّاً ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ لِي: يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنْ السَّائِلُ، قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ: فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ)، فجعل مقام الإحسان - المصطلح عليه عند العلماء بالتصوف مثل اصطلاحهم لبقية العلوم- في الحديث من كمال الدين، وذلك بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: (فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ)، والتصوف بهذا المعنى هو تحقيقٌ لمقام الإحسان بعد تصحيح الإسلام والإيمان، إذ لا تصوف إلا بفقه، كما لا فقه إلا باعتقاد وإيمان، فلا سبيل لمعرفة الأحكام المتعلقة بنا إلا به، كما لا فقه أيضاً إلا بتصوف، إذ لا عبرة بفقهٍ لا يصحبه صِدقُ التوجه،

قال الشيخ زرُّوق المالكي رحمه الله: "التصوف علم قصد لإصلاح القلوب، وإفرادها لله تعالى عما سواه، والفقه لإصلاح العمل وحفظ النظام، وظهور الحكمة بالأحكام، والأصول -علم التوحيد- لتحقيق المقدمات بالبراهين، وتحلية الإيمان باليقين، كالطب لحفظ الأبدان"، فيؤخذ من هذا وجوب معرفة هذا العلم، لهذا لم يزل أئمة الإسلام وهداة الأنام قديماً وحديثاً يرفعون مناره، ويُجلون مقداره، ويعظمون أصحابه، فإنهم أولياء الله وخاصته من خلقه بعد أنبيائه ورسله، ومن أثمن ما قيل في التصوف قول الإمام أبي الحسن الشاذلي المالكي رحمه الله تعالى: "التصوف تدريب النفس على العبودية، وردُّها لأحكام الربوبية"، وقول سيد الطائفتين الإمام الجنيد الظاهري رحمه الله تعالى: "التصوف استعمال كل خُلقٍ سنيّ، وترك كل خُلقٍ دنِي".

وما أجمل قول القائل:

يـــا مَـــنْ تَقاعَـــدَ عَـــنْ مَـــكارِمِ خُلُقِـــه
لَـــيْسَ التَفـــاخُرُ بِـــالعُلُومِ الظـــاهِرَة
مَـــنْ لَـــمْ يُهَـــذِّبْ عِلْمَـــهُ أَخْلاقُـــه
لَـــمْ يَنْتَفِـــعْ بِعُلومِـــهِ في الآخِـــرَةِ

فعماد التصوف تصفية القلب، وتطهير النفس من الأخلاق الذميمة، وتعمير الظاهر والباطن، وقوامه صلة الإنسان بالخالق العظيم لنيل المراد وهو السعادة الأبدية.



فصل كيف تؤخذ العلوم

اعلم أنه لا يصح أخذ العلوم ابتداءً من الكتب إلا بعد أن يتلقى الطالب نصيباً منها عن العلماء حتى تتكون له ملكة يستطيع أن يميز بها المكلف الخطأ من الصواب، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾"النحل: من الآية 43"، وقد أجمع علماء التفسير وغيرهم أن أهل الذكر هم العلماء، ومما لا يشك به عاقل أن الله سبحانه وتعالى أمر بإتباع أنبيائه فقال جلَّ وعلا: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**﴾"الحشر: من الآية 7"، وقال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾"الأحزاب: من الآية 21"، والآيات في هذا المعنى كثيرة، ولكن أردنا التنبيه على وجوب إتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم لنفهم ونقيم الدليل القطعي على وجوب إتباع العلماء؛ لأنهم ورثة الأنبياء، ولا نفهم حقيقة من

يدّعي اليوم أنه مُتَّبع لسنة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وهو مُعْرِض عن العلماء، ومُنْكبٌّ على الكتب من غير تلقٍ عن أهل العلم، وبذلك يكون مخالفاً للكتاب والسنة والإجماع، ومن السنة قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا وَحَفِظَهَا وَبَلَّغَهَا فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ)"رواه أصحاب السنن وغيرهم بطرق كثيرة وألفاظ مختلفة عن ابن مسعود وغيره"، وهو من الأحاديث المشهورة المتواترة كما مرَّ معنا سابقاً في آداب المتعلم، وقد قال شيخ شيوخنا الإمام السيد علوي بن السيد عباس المالكي الحسني ثم المكي رحمة الله عليه في كتابه (فتح القريب المجيب على شرح تهذيب الترغيب والترهيب): "وهكذا خَصَّهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بدعاءٍ لم يشرك فيه أحداً من الأمة، وهذا الدعاء يناسب حال مبلغ الحديث؛ لأنه سعى في نضارة العلم وتجديد السنة، فجازاه بالدعاء بما

يناسب حاله"، ويؤيده ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: (اللّٰهُمَّ ارحم خلفائي)، قال عليه السلام: قلنا: يا رسول الله ومن خلفاؤك؟ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ: (الذين يأتون من بعدي، يروون أحاديثي وسنتي ويعلمونها الناس)"رواه الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث ورواه الطبراني في الأوسط"، قال القسطلاني في مقدمة (إرشاد الساري) بعد ذكر هذا الحديث: "ولا ريب أن أداء السنن إلى المسلمين نصيحة لهم من وظائف الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، فمن قام بذلك كان خليفة لمن يبلغ عنه، فدعا لهم بالرحمة وسمّاهم خلفاءه"، وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ وَتَأْوِيلَ

الْجَاهِلِينَ)"رواه البيهقي في المدخل وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: رواه البزار وقد جاء عن عشرة من الصحابة وهم الإمام علي وابن عمر ومعاذ وأبي هريرة وابن مسعود وأسامة بن زيد وأبي الدرداء وأنس بن مالك وأبي أمامة وسمرة بن جندب وحسنه العلائي كما قال السخاوي وذلك بمجموع طرقه"، **فيفهم** من هذه الأحاديث بيان عدالة العلماء عامة، وأهل الحديث خاصة، ويفهم أيضاً أن أخذ العلم لا يكون إلا بالتلقي، وقد روى الإمام الخطيب البغدادي بإسناده عن موسى بن يسار -أحد المشهورين- أنه قال: "لا تأخذوا العلم إلا من أفواه العلماء"، وقال أيضاً: "الذي يأخذ العلم من الكتاب يقال له الصحفي والذي يأخذ القرآن من المصحف يقال له مصحفي"، ولهذا أوجب العلماء نقل كل شيء إلى قائله بالسند المتصل لما رواه ابن أبي أويس أحد تلاميذ الإمام مالك رحمه الله قال: سمعت مالكاً يقول: "إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه، لقد أدركت سبعين ممن يقول قال رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم عند هذه الأساطين - وأشار إلى المسجد- فما أخذت عنهم شيئاً، وإن أحدهم لو اؤتمن على بيت مالٍ لكان أميناً، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن"، ذكره ابن فرحون في كتابه (الديباج المذهب لمعرفة أعيان المذهب)، والأصل في ذلك قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَالْفِقْهُ بِالتَّفَقُّهِ، وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)"أخرجه البخاري في صحيحه كتاب "العلم" باب "العلم قبل القول والعمل" ورواه الطبراني في المعجم الكبير واللفظ له"، والمدار في فهم الحديث يتوقف على كلمة "إنَّما" المركبة من "إنَّ" المؤكِّدة و"ما" النافية، قال علماء البلاغة: "إذا ما التقى التوكيد والنفي واجتمعا في كلمة واحدة مثل "إنَّما" فإن ما بعدهما يفيد الحصر"، فيكون معنى الحديث لا يكون العلم إلا بالتعلم، وقال الشاطبي في كتابه (الموافقات): "كان العلم في صدور الرجال ثم انتقل إلى بطون الكتب، وبقيت مفاتيحه

بأيدي الرجال"، فنفهم أنه لا مجال للتعلم ابتداءً إلا بالتلقي عن الرجال ولو كانت العلوم في بطون الكتب، والمقصود من قوله: "بطون الكتب" أنها أصبحت أوعيتها بعد أن كانت العلوم أوعيتها صدور الرجال، وفي هذا أنشد أبو حيان الأندلسي صاحب تفسير النهر المادّ قائلاً:

يَظُنُّ الغُمْرُ أَنَّ الكُتْبَ تَهْدي
أَخا جَهْلٍ لِإِدْراكِ العُلُومِ
وما يَدْري الجَهُولُ بأَنَّ فيها
غَوامِضَ حَيَّرَتْ عَقْلَ الفَهِيمِ
إِذا رُمْتَ العُلُومَ بِغَيْرِ شَيْخٍ
ضَلَلْتَ عَنِ الصراطِ المُسْتَقيم
وتَلْتَبِسُ الأُمُورَ عَلَيْكَ حَتَّى
تَصيرَ أَضَلَّ مِنْ تُوما الحَكيمِ

ولا شك أن الكتب التي يطالعها الشخص لا تخلو من دسٍّ أو افتراءٍ على الدين، أو يفهم منها أشياء على خلاف ما هي عليه عند السلف والخلف على ما تناقلوه جيلاً عن جيل، فيؤدي إلى عبادة فاسدة أو أن يقع في الحرام أو في الكفر والضلال أعاذنا الله وإياكم، وأقلُّ ما يكون في الكتب أنها لا تخلو أيضاً من خطأ مطبعي، وعلى كل حال فاعلم أن ليس ذلك سبيل التعلم الذي نهجه السلف، إذ لا بد من تعلم أمور الدين من عارف ثقة يكون أخذ عن ثقة، وهكذا إلى الصحابة رضوان الله عليهم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى جبريل عليه السلام عن اللوح المحفوظ عن رَبِّ العزة سبحانه وتعالى، ولهذا أوجب العلماء نسبة كل شيء إلى قائله وذلك بالنقل المعتبر عند أهل الفن والأثر وهو المتفق على تسميته بالسند، وكل ذلك لما في السند من الفضل على غيره، فهذه الأقوال المنقولة إلينا بالتلقي من أفواه العلماء نقلت بالسند كما نقل حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنه أصل من

أصول الدين مصداقاً لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: (أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ)"جزء من حديث رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والدارمي"، وكذلك نقل كلام الصحابة رضي الله عنهم؛ لأنه فهم للدين وعمل به وتفسير له من أقرب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأعلمهم بكلامه وهديِهِ، وكذلك كلام التابعين وتابعي التابعين وخاصة ما وصل إلينا من فقه الأئمة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد رضي الله عنهم أجمعين؛ لأنهم أعرف الناس بما كان عليه صحابته الكرام، فكل منقول متوقف قبوله أو رده على السند والتلقي، ولولا التلقي لما كان السند، فإن صحَّ السندُ ثبت نقل الخبر، وإن لم يصح انتفى ثبوته، وبهذا الميزان يُحاكم كل ما يُنقل من قرآنٍ وحديثٍ وفقهٍ وغيره من العلوم حتى الأدب والشعر والنثر والتاريخ، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك مثل نقل المسليات أو المضحكات كأخبار الحمقى والمغفلين أو أخبار الأذكياء والنابهين أو البخلاء والطفيليين، فترى أحدهم يسوق سنداً

طوله سطران أو ثلاثة أسطر من أجل كلمة ذات ثلاثة أحرف صدرت من مستظرف أو أحمق أو ذكي نابه ليثبت بالسند على أنها نقلت عن قائلها كما ذكره البغدادي في كتابه (التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم)، فقال: "أخبرنا علي بن أبي علي حدثنا محمد بن عبد الرحيم المازني أخبرنا قتيبة قال: الضَيْفَنْ"[1]"، مع أن الخبر ليس فيه أمرٌ ولا نهيٌ، ولا حلالٌ ولا حرام، وإنما هو من حكايات الأسمار، وبهذا الاستدلال تعلم ما هو قيمة التلقي وأخذ السند عن العلماء الأعلام، فالسند والتلقي شرطان مطلوبان في كل خبر صغير أو كبير، طويل أو قصير، وما القصد إلا تحقق الصدق في الخبر وانتفاء الكذب عنه، وما يتم هذا وذاك إلا بالتلقي، وهو صفة المحققين من أهل العلم، والذي يجب أن يُعلم أنه لو كان هناك أحدٌ مستثنى عن التلقي لكان حبيبنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ومع هذا فإنه تلقى الوحي عن جبريل رغم أنه

1- هو الذي يجئ مع الضيف ولم يدع.

أفضل منه، وفي تلقي الفاضل عن المفضول يكمن سرُّ الشريعة الإسلامية، فكيف يتجرأ بعض من ينتسبون إلى العلم ويقولون أنه لا حاجة إلى التلقي والسند بعد أن دونت العلوم في الكتب. وقد نقل الإمام النووي رحمه الله تعالى في كتابه (الترخيص في الإكرام بالقيام لذوي الفضل على سبيل التوقير والاحترام لا على سبيل الرياء والإعظام) بسنده المتصل إلى أبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي الحافظ: أنشد ابن عبد السلام الأديب رحمه الله:

أَلاَ إِنَّ خَـــيْرَ النّـــاسِ بَعْـــدَ مُحَمَّـــدٍ
وأَصْـــحابِهِ والتـــابِعينَ بِإِحْســـان
أُنـــاسٌ أَرادَ اللهُ إِحْيـــاءَ دينِـــه
بِحِفْـظِ الذي يَـرْوي عَـنِ الأَوَّلِ الثـاني
إِذا عالِـمٌ عالي الحَـديثِ تَسـامَعُوا بِـه
جـاءَهُ القـاصي مِـنَ القَـوْمِ والداني

وســـارُوا مَســـيرَ الشَـــمْسِ في جَمْـــعِ عِلْمِـــه
فَأَوْطـــانُهُم أَضْـــحَتْ لَهُـــمْ غَـــيْر أَوْطـــان

وحدثني شيخي محمد الشاذلي النيفر عن والده الشيخ الصادق النيفر عن الشيخ محمد الطيب النيفر أنه سمع سيدي الشيخ إبراهيم الرياحي التونسي يقول:

أَهْـــــلُ الحَـــــديثِ طَويلَـــــةٌ أَعْمـــــارُهُم
ووُجـــــوهُهُم بِـــــدُعا النَّـــــبِيّ مُـــــنَضَّرَة
وسَـــمِعْتُ مِـــنْ بَعَـــضِ المَشـــايِخِ أَنَّهُـــم
أَرْزاقُهُـــــمْ أَيْضـــــاً بِـــــهِ مُتَكَـــــثِّرَة



فصل في أفضل طرق التعلم

قال العلامة الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي المتوفى سنة 1363 هجري الموافق له 1944 رومي في كتابه (إضاءة الحالك من ألفاظ دليل السالك إلى موطأ الإمام مالك) "والتحقيق في كيفية التعليم هي أن يقرر المدرس المتن، ويبين الـمُشكل، ويتمم الناقص من القيود، وما زاد على ذلك فضرره على المتعلم أعظم من نفعه، كما قاله المحقق ابن عبد العزيز الهلالي قال: وهذا بالنسبة للمبتدى أما سواه فيزاد على قدره بالعزوِ وبالدليل الذى بنى عليه الفرع وبما يوافق المقام من بيانٍ للمسائل التي يصعب فهمها مع أجوبتها "انتهى بتصرف.

وقد قال ذلك المحقق عبد العزيز الهلالي نظماً:

تَقْريـــــــرُ مَـــــــتْنٍ وبَيـــــــانُ مُشْـــــــكِلٍ

تَتْمـــــيمُ مـــــا نَقَـــــصَ الاقْـــــراءَ اجْعَـــــل

وزَائِـــــــدٌ ضَرَرُهُ أَعْظَـــــــمُ مِـــــــنْ
نَفْــــعٍ بِـــــهِ فَهْــــوَ بِـــــالترْكِ قَمِــــنْ
قُلْــــــتُ وذا بِالنِسْــــــبَةِ للمُبْتَــــــدي
أمّــــــا سِــــــــواهُ فبِقَـــــــــدْرِهِ زِدِ

ولحديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُقَدِّسُ أُمَّةً لَا يُعْطَى الضَّعِيفُ فِيهِمْ حَقَّهُ)"رواه الطبراني"، وعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قال: "حَدِّثُوا النَّاسَ، بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ، اللَّهُ وَرَسُولُهُ""رواه البخاري" وجاء في الأثر "سيروا على قدر ضعفائكم" وكذلك "خاطبوا الناس بقدر ما يفهمون".



فصل في شروط المكلّف

التكليف: هو طلب ما فيه كُلْفَة من فعل أو ترك، قال تعالى: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلا وُسْعَهَا**﴾"البقرة: من الآية 286".

والمكلف: هو البالغ العاقل الذي وصلته دعوة الإسلام وكان خالياً من المانع.

1- **البلوغ**: وهو كما قال أبو عبد الله المازري المالكي: قوة تحدث في الصبي والصبية يخرجان بها من حالة الطفولة إلى حالة الرجولة، وتلك القوة لا يكاد يعرفها أحد، فجعل لها المُشرِعُ علامات يستدل على حصولها وهي ثلاثة: اثنتان يشترك فيها الذكر والأنثى، وواحدة تنفرد بها الأنثى.

أما الاثنتان اللتان يشترك فيهما الذكر والأنثى فهما:

أولاً: **خروج المني**: وهو ماء لزج يخرج على دفقات بعد انتصاب قضيب الرجل واحتدام الشهوة، مقرون باللذة التي يعقبها فتور

وارتخاء في المفاصل، وله رائحة البيض إذا جف، وهو موجب للغسل لحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (إِنَّمَا الْمَاءُ مِنْ الْمَاءِ)"رواه مسلم"،

معناه: الاغتسال من الإنزال، وتتصف به الأنثى والذكر على السواء، ولكن منيَّ الأنثى أصفر رقيق ينساب مع الفرج انسياباً إذا برز، وغالباً ما يبقى في جوف الرحم، ولكن تشعر به الأنثى عند حدوثه، لحديث أُمِّ سَلَمَة رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: جَاءَتْ أَمُّ سُلَيْمٍ رضي الله عنها إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي مِنْ الْحَقِّ فَهَلْ عَلَى الْمَرْأَةِ مِنْ غُسْلٍ إِذَا احْتَلَمَتْ؟، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ: (نَعَمْ إِذَا رَأَتْ الْمَاءَ)، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ رضي الله عنها: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَتَحْتَلِمُ الْمَرْأَةُ؟، فَقَالَ: (تَرِبَتْ يَدَاكِ فَبِمَ يُشْبِهُهَا وَلَدُهَا)"رواه البخاري ومسلم واللفظ له".

ثانياً: بلوغ خمسة عشر سنة عند الشافعية: والدليل عندهم الاستقراء والتتبع، هذا إذا لم يُمنِ الرجل أو تحيض المرأة، ويستأنس الشافعية لقولهم هذا بحديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: "عُرِضْتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ يَوْمَ بَدْرٍ وَأَنَا ابْنُ ثَلاثَ عَشَرَةَ سَنَةً، فَرَدَّنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وأله وَسَلَّمَ، ثُمَّ عُرِضْتُ عَلَيْهِ يَوْمَ أُحُدٍ وَأَنَا ابْنُ أَرْبَعَ عَشَرَةَ فَرَدَّنِي، ثُمَّ عُرِضْتُ يَوْمَ الأَحْزَابِ وَأَنَا ابْنُ خَمْسَ عَشَرَةَ، فَأُجِزْتُ""رواه الطبراني في المعجم الكبير"، وعند الحنفية والمالكية ثمانية عشر سنة، والعبرة بالسنة القمرية لا الشمسية.

وأما العلامة التي تنفرد بها الأنثى فهي الحيض: وهو علامة تنفرد به الأنثى، والأصل فيه قوله تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ**﴾"البقرة: من الآية 222"، وما رواه البخاري ومسلم وفيه: (هَذَا شَيْءٌ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ).

والحيض في اللغة: السيلان، تقول حاض الوادي إذا سال، **وشرعاً**: دم جبلةٍ يخرج من أقصى رحم المرأة في أوقات مخصوصة، وهو مائل إلى السواد، لاذع، يتبدل مزاج المرأة في أثنائه وقرب حدوثه، وله عشرة أسماء معروفة عند العرب وذكر منها في القرآن والسنة، ومن هذه الأسماء: حيض، وطمث، وضحك، وعراك، وإكبار، وإعصار، ودراس، وفراك، وطمس، ونفاس، ويتعلق به كثير من الأحكام ومنها ما يتوقف على ذات الحيض وهي: البلوغ، والاغتسال، والعِدّة، والاستبراء، وقبول قولها فيه، وترك الطواف، وسقوط فرض الصلاة، والانقطاع عن الصوم، وسجدة التلاوة، وسجدة الشكر، والاعتكاف، والدخول إلى المسجد، وقراءة القرآن من المصحف وكتابته ومسه، والطلاق والوطء والمباشرة بين السرة والركبة

من غير مئزر، والحوائض من النساء خمسة: مبتدئة ومعتادة ومميزة وملفِّقة ويائسة ومثلهم المستحاضة.

فائدة: من العلامات الفارقة التي تدل على البلوغ ولكن لا يجوز أن يبنى عليها وجوب التكليف لذاتها إلا أن تكون ملازمة للشروط السابقة الذكر: خروج شعر العانة ويسمى بشعر الوسط عند الذكر والأنثى والمقصود منه الخشن لا الزغب، ورائحة الإبطين، وفرق الأرنبة من الأنف، وبروز الحنجرة، وغلظ الصوت.

2- **العقل**: وهو كما عَرَّفه إمام الحرمين: جوهر لطيف به تدرك المحسوسات بالمشاهدات والغائبات بالوسائط، خلقه الله في القلب وجعل نوره في الدماغ، وقال الراغب الأصفهاني أو الأصبهاني: "هو قوة مهيأة لقَبول العلم"، وقال أبو إسحاق الشيرازي: "هو قوة يقع بها التمييز بين الحسن والقبيح"، وسمي

العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن سواء السبيل، ولأجل هذا أوجب العلماء على المكلف أن يميز بين ما هو واجب عقلاً ومستحيل عقلاً وجائز عقلاً، ومن لم يميز بين هذه الثلاث وإن كان عند الناس عاقلاً فهو عند الله ليس بعاقل، مع وجوب العلم بأن العقل لا يستقل بمعرفة الأشياء المنجية بالآخرة، وهو شاهدٌ من شواهد الشرع؛ لأن الشرع لا يأتي إلا بِمُجَوِّزات العقول، وهو معنى قولهم: "لا تكليف إلا بعقل"، مصداقاً لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلاثَةٍ: عَنْ الْمَجْنُونِ الْمَغْلُوبِ عَلَى عَقْلِهِ حَتَّى يَفِيقَ، وَعَنْ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنْ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ)"رواه أحمد وأبو داود والحاكم عن علي وعمر رضي الله عنهما وبمعناه عند النسائي وابن ماجه عن السيدة عائشة رضي الله عنها وعن أبيها".

وأنشد بعضهم:

مـــا وَهَـــبَ الله لامْـــرِئٍ مِـــنْ هِبَـــه

أَفْضَـــلُ مِـــنْ عَقْلِـــهِ ومِـــنْ أَدَبِـــه

وابتداءُ وجوده في الإنسان عند اجتنان الولد، ثم لا يزال ينمو إلـي أن يكـمل عند البـلوغ، ومحله القـلب على المشهور، قال ابن زكري من المالكية في (محصل المقاصد):

مَحَلُّـــــهُ القَلْـــــبُ على المَشْـــــهُور

للـــــوَحْيِ وهـــــو مَـــــذْهَبُ الجُمْهُـــــورِ

وفي الدِمـــــاغِ قـــــالَ جُـــــلُّ الحُكَمـــــا

بِقَـــــوْلِهِمْ قَـــــدْ قـــــالَ بَعْـــــضُ العُلَمـــــا

ومنه قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾**"الأعراف: من الآية 179"، وهو أفضل ما مَنَّ الله به على عباده، وذلك لحديث أبي عبد الله النعمان بن بشير رضي

الله عنهما قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ يَقُولُ: (إِنَّ الْحَلالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ) إلى أن قال: (أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ)"رواه البخاري ومسلم واللفظ له"، وهو أشرف الأعضاء لسرعة الخواطر فيه وترددها عليه، وأنشد عمر بن أبي ربيعة:

مـــا سُـــمِّيَ القَلْـــبُ إِلاَّ مِـــنْ تَقَلُّبْـــه
فاحْذَرْ على القَلْبِ مِنْ قَلْـبٍ وتَحْويـلِ

وقد خص الله تعالى جنس الحيوان بهذا العضو وأودع فيه تنظيم المصالح المقصودة، فتجد البهائم على اختلاف أنواعها تدرك به مصالحها وتميز به مضارها من منافعها، ثم خص الله تعالى نوع الإنسان من سائر الحيوان بالعقل وأضافه إلى القلب، وقد جعل الله الجوارح مسخرةً له ومطيعة، فما استقر فيه ظهر عليها وعملت على معناه، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فإذا

فهمت هذا ظهر لك معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً)الحديث.

3- **بلوغ دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم**: فكل من لم تبلغه دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فهو غير مكلف ناجٍ، والأصل فيه قوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾"الإسراء: من الآية 15"، ومن هذا نعلم أن أهل الفِترَة ناجون، وهم الذين جاءوا بين فترة نبي ونبي، إلا من سماهم القرآن أو ذكروا في السنة فهم خارجون على غير قياس.

4- **الخلو من المانع**: وهو أعمُّ من أن يكون حسياً أو معنوياً، والحسي إما مؤقتٌ بأجلٍ مثل الحيض والنفاس أو أبديٌّ عادةً مثل فقد السمع والبصر معاً، وأما المعنوي فمثاله عدم وصول الدعوة كما مرَّ وهو أخص من البلوغ.

هذا ما لا يجوز أن يجهله كل مبتدئ جملةً كان أو تفصيلاً، وما يحتاج إليه كل منتهي تذكيراً وتعليماً وتفهيماً، فيرتجى منه أن يكون بعد ذلك حكيماً حليماً، وهو ما اكتمل من صفاته صلى الله عليه وآله وسلم المشار إليه في حقه تفخيماً وتعظيماً ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾"النساء: من الآية 113"، والله ورسوله أعلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلِّ اللّهُمَّ على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

إعداد:

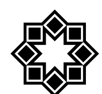
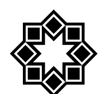
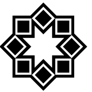
المركز الوطني للبحوث والدراسات

آل البيت ـ فلسطين

21 ذو القعدة 1428 هجري الموافق له 1 ديسمبر 2007 رومي



تَمَّ بِحَمْدِ اللَّهِ الكتاب

فَهْرَسُ الْمَوْضُوعَاتِ



إصدار



المركز الوطني للبحوث والدراسات
التابع لآل البيت ـ فلسطين
الموقع الالكتروني: www.alalbait.ps

ISBN: 978-9938-14-021-7